خلق أفعال العباد في الفكر الإسلامي

ياسر بدوي عبد المجيد *

المستخلص:

تناولت هذه الدراسة مسألة أفعال العباد في الفكر الإسلامي وذلك من خلال نظرة الفرق الإسلامية المختلفة لهذه المسألة، فتناولت رأي الجهمية الذين يرون أنه لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، والأعمال إذا نُسبت إلى العباد فهي على سبيل المجاز، أمَّا المعتزلة فيروْن أنَّ الله تعالى غير خالق لأفعال العباد فهم يقدرون أفعالهم وأنَّه تعالى ليس له في أفعالهم صنع ولا تقدير.أمَّا أهل السُنَّة والجماعة فجميعهم متفقون على أنَّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ومكسوبة للعباد، فالأشاعرة أثبتوا الكسب للعبد بقدرة أودعها الله إياه ولكنهم لم يجعلوا لقدرة العبد أي تأثير في فعله، والماتريدية أثبتوا الكسب للعبد بقدرة أودعها الله إياه وجعلوا لهذه القدرة أثراً في الفعل ولا أثر لها في الايجاد. أما السلف فأتبعوا الكسب للعبد بقدرة أودعها الله إياه وأنَّ للعبد مشيئةً واختياراً.

Abstract :

This study issue the human behavior in the Islamic thought, from a perspective point of view of Islamic groups. The Jahamiyyah believe that no act or work done personaly but all acts and works done by God, and when works done they are as a metaphor. The Mu'tazilah argues that God is not the creator of the people acts and their actions done by them and God have no affect on their actions and God make no estimate. The Sunnis agrees that the acts of the people created by God Almighty and Maxobh by them, Al-Ashaera proved gain to the person power deposited by God, but they did not make the ability of a person of any influence to do, and Maatreedis proved gain to the person power deposited by God and made this capacity effect in the act does not affect in the finding. The early muslims related the gain to persons using his own force that created by God and that persons have their own intentity and selectivity

الكلمات المفتاحية: عقيدة أهل السُنَّة- ماتريدية- معتزلة- أشاعرة – جهمية

* أستاذ مساعد- رئيس لجنة التقويم الذاتي وضمان الجودة بالمعهد- معهد العلوم والبحوث الإسلامية- جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا.
البريد الإلكتروني : yasirr_70@yahoo.com الهاتف :٠٩١٢٨٠٥١٧٩

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مقدمة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الحمد لله رب العالمين – حمد الربوبية الحق للعبودية الصدق– نجاهد في سبيله أنفسنا أن تستقيم على أمره وهديه ورشده، حتى تقوم بما أوجب الله سبحانه وتعالى عليها من تبليغ هذه الرسالة الخاتمة على صاحبها أفضل الصلوات المباركات مع التسليمات الزاكيات من ربَّ السماوات ربَّ الأرض ربَّ العالمين.

مسألة خلق أفعال العباد من المسائل المهمة في الفكر الإسلامي، والتي اختلفت حولها نظرة علماء المسلمين باتجاهاتهم المختلفة، وقد كانت محوراً أساسياً تختلف حوله الفرق الإسلامية في باب العقيدة.

وقد رأى الباحث أن يلقي نظرةً من خلال هذه الورقة العلمية التي يوضح من خلالها ما ذهبت إليه الفرق الإسلامية المختلفة حول هذا الموضوع وقد تناول فيها مذاهب أهم الفرق الإسلامية التي أثَّرت في الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً ومنها الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية والسلف.

مسألة خلق أفعال العباد عند الفرق الإسلاميَّة

تمـــهـــيـــد

مذهب السلف أنَّ الخالق هو الله تعالى لا خالق سواه، كل ما وقع بقدره ولا فرق في ذلك بين ما تعلقت قدرة العباد به وبين ما تفرَّد الربُّ بالاقتدار عليه، فنجدهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ومشيئته العامة وينزهونه تعالى عن أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه وما لا يقع تحت مشيئته وأنَّ العباد يفعلون ما قدَّره الله وقضاه لهم، وأنَّهم لا يشاؤون إلا أن يشاء الله ولا يعقلون إلا بمشيئته ومع ذلك يثبتون قدرةً للعبد وإرادةً واختياراً، وفعله حقيقةً لا مجازاً وهم متفقون على أنَّ الفعل غير معقول، فحركاتهم واعتقاداتهم أفعال لهم حقيقة، وهي معقولة له تعالى مخلوقة له حقيقة، والذى قام بالربَّ عزَّ وجلَّ علمه وقدرته ومشيئته وتكوينه، والذى قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم. يقول شارح العقيدة الطحاويَّة: " أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهي مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه وتعالى متفرِّد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه."(١)

فمسألة الاستطاعة أو القدرة من المسائل التى وقع فيها الخلاف بين الفرق الإسلاميَّة تبعاً للخلاف الواقع في القدر كالآتي:

ــ فالذين قالوا بالجبر هم الجهميَّة ومن وافقهم، فقالوا بنفي الاستطاعة لا مع الفعل ولا قبله وذلك لأنَّ العبد عندهم لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار(٢).

الذين قالوا بنفي القدرة وأنَّ العبد محدث لأفعاله وهم المعتزلة ومن وافقهم، فأثبتوا الاستطاعة قبل الفعل ونفوا أن تكون معه(٣).

ــ الذين قالوا بالكسب وهم الأشاعرة ومن وافقهم، فقالوا بأنَّ الاستطاعة تكون مع الفعل لا قبله(٤).

ــ الذين توسَّطوا في المسألة وهم الماتريدية فقالوا بإثبات الاستطاعة قبل الفعل ومعه وأنَّها تكون على نوعين:

- سلامة الأسباب والآلات وهي تتقدم الفعل.
- الاستطاعة التي يتهيأ بها الفعل وتكون مع الفعل(٥).

أولاً: القائلون بالجبر (الجهميَّة) (٦) :

يرى جهم بن صفوان (١٢٨هـ /٧٤٦م) أنَّه لا فعل ولا عمل لأحدٍ غير الله تعالى، والأعمال إذا نسبت للعباد فهي على سبيل المجاز، وأنَّ أفعال العباد ليست من صنعهم بل يخلقها الله وحده، والإنسان مجبرٌ تمام الجبر، ومجرَّد من كل قدرةٍ وإرادةٍ، فالله

---

(١) علي بن العز الحنفي (٢٠٠١م) شرح العقيدة الطحاوية تحقيق التركي،عبد الله بن المحسن و الأنؤوط ، شعيب (ج٢)، مؤسسة الرسالة،بيروت ، لبنان ،ص٦٢.

(٢) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل(ج١) تحقيق محمد، أحمد فهمي ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان،ص٤٥.

(٣) الأشعري، أبو الحسن (١٩٩٠م) مقالات الإسلاميين (ج١) تحقيق عبد الحميد ، محمد محي الدين، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان،ص٣١٢.

(٤) الرازّي، الفخر، تفسير الفخر الرازي، (م١١ج٢١)، ص ١٥٣.الأشعري،اللمع ، ص ٤٦ – ٤٧. الباقلاني،التمهيد، ص ٣٢٣.

(٥) الفيومي، محمد إبراهيم ، تاريخ الفرق الإسلامية السياسي والديني (شيخ أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدي)،ص ٤٤٣. الأشعري، مقالات الإسلاميين (ج١)، ص٣٨٨.

(٦) الجمية، تنسب إلي الجهم بن صفوان (٧٤٦/٥١٨م) ،صاحب الجبر الخالص الذي ينفي عن الإنسا ن أية قدرة على إحداث الفعل والاستطاعة وإنَّما هو مجبور في أفعاله ولا يجوز عند الجهميَّة أنَّ يوصف الله بأية صفة توصف بها مخلوقاته ولك مثل كونه حيا وعالما وسميعاوبصيراولكنه يوصف بالصفات التي تخصه مثل كونه خالقا محييا مميتا ، أنظر:الفرق بين الفرق ،البغدادي ، ١٩٩/١ ، الملل والنحل ، الشهرستاني، ص٨٤.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يخلق له أفعاله ثم يجريها على يده، ولا فرق عندهم بين الأفعال الاضطراريَّة كرعشة اليد، وبين الأفعال التي يخيَّل إلى بعضهم بأنَّها اختياريَّة، مثل السير والكلام والحركة، فيرون أنَّها كلَّها مخلوقة لله حقيقة.(٧)

وأتباع جهم بن صفوان يعرفون بالجبريَّة الخالصة، لأنَّهم لا يثبتون للعبد فعلاً ولا قدرةً على الفعل أصلاً، والإنسان عندهم لا يقدر على شيءٍ ولا يوصف بالاستطاعة وإنَّما هو مجبورٌ على فعله، وأنَّ الله هو الذى يخلق فيه أفعاله على نحو ما يخلق في سائر الجمادات والنباتات والحيوانات، فتنسب إليه الأفعال مجازاً ، كما يقال أثمرت الشجرة وجرى الماء، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس، وما إلى ذلك، والثواب والعقاب جبرٌ، كما أنَّ الأفعال كلها جبرٌ، وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً جبر(٨).

ولم يرق هذا التعنت في الجبر للقدريَّة، ولم يرتاحوا بذلك فأحدث ذلك رد فعل قوي فتمادوا في نفي القدر، وإن كان الجهميَّة قد تطرَّفوا في الجبر كذلك القدريَّة الأوائل تطرَّفوا أيضاً في الحريَّة ويتضح ذلك في رأي المعتزلة الذين يمثلون هذا الرأى والذي لم ينل كبير استحسان من جمهور المسلمين.

ثانياً: القائلون بالنفي (المعتزلة) (٩):

يرى المعتزلة أنَّ الله تعالى غير خالقٍ لأفعال العباد فهم الذين يقدرون أفعالهم وأنَّه تعالى ليس له في أفعالهم صنع وتقدير.

يقول القاضي عبد الجبار(٤١٥هـ / ١٠٢٥م):" أفعال العباد لا يجوز أن توصف بأنَّها من الله تعالى ومن عنده ومن قِبله، وذلك واضح، فإنّ أفعالهم حدثت من جهتهم وحصلت بدواعيهم وقصودهم، واستحقوا عليها المدح والذم والثواب والعقاب، فلو كانت من جهته تعالى أو من عنده أو من قِبله لما جاز ذلك، فإذن لا يجوز إضافتها إلى الله تعالى إلا على ضرب من التوسع والمجاز"(١٠).

وقد اتفقوا على أنَّ أفعال العباد من تصرفهم وقيامهم وقعودهم حادثة من جهتهم وأنَّ الله عزَّ وجلَّ أقدرهم على ذلك ولا فاعل لها ولا محدث سواهم (١١).

وذهب سائر المعتزلة ومن وافقهم على ذلك من الخوارج والشيعة إلى أنَّ أفعال العباد محدثة، فعلها فاعلوها ولم يخلقها الله عزَّ وجلَّ على تخليط منهم في ماهيَّة أفعال النفس، إلا بشر بن المعتمر(١٢) عطف فقال إلا أنَّه ليس شيء من أفعال العباد إلا ولله تعالى فيه فعل من طريق الاسم والحكم، يريد بذلك أنَّه ليس للناس فعل إلا ولله تعالى فيه حكم بأنَّه صواب أو خطأ أي حسن أو قبيح طاعة أو معصية.

وقال معمَّر(١٣) والجاحظ (٢٢٥هـ/ ٨٦٩م) إنَّ أفعال العباد كلها لا فعل لهم فيها وإنَّما نسبت إليهم مجازاً لظهورها منهم، وإنَّها فعل الطبيعة حاشا الإرادة فقط، فإنَّه لا فعل للإنسان غيرها البتة. ومن تدبر هذا القول علم أنَّه أقبح من قول جهم وجميع المجبرة لأنَّهم جعلوا أفعال العباد طبيعية اضطرارية كفعل النار للإحراق بطبعها وفعل الثلج للتبريد بطبعه، وهذا صفة الجمادات لا صفة الأحياء المختارين، إذن يرى المعتزلة أنَّ الله تعالى ليس له في أفعال العباد المكتسبة صنع ولا تقدير ولا إيجاد ولا نفي، وأنَّ الإنسان فاعلٌ حرٌ مختارٌ يعمل بالقدرة الحادثة التي منحتها إليه العناية الإلهية ويتصرف بها ويوجهها حسبما يريد وهذه القدرة تصلح لفعل الضدين: الفعل والترك.وأنَّ أمر الله وإرادته متلازمان، فقد أراد الله من الأعمال خيراً أن تكون وأمر بها، فهو يريد

---

(٧) الأشعري، أبو الحسن، مقالات الإسلاميين(ج١)،ص٢٧٩. الشهرستاني، الملل والنحل(ج١)، ص٧٣ . البغدادي، عبد القاهر، الفرق بين الفرق(ج١)، ص ٢٠٨.ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل(ج٣)، ص١٤.

(٨) الإسفراييني ، طاهر بن محمد أبو المظفر، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، تحقيق الحوت، كمال يوسف(١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) عالم الكتب، لبنان، ط١،(ج١)،ص١٠٧.الشهرستاني، الملل والنحل(ج١)، ص٧٣.

(٩) المعتزلة، أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية ، فرقة إسلامية ازدهرت في البصرةوبغداد ، مؤسسها واصل بن عطاء (٨٠ -١٣١هـ/٧٠٠ ــ ٧٤٩م)، من أقوالهم الإعتقادية القول بخلق القران، والأصول الخمسة، انظر: مقالات الإسلاميين ،أبو الحسن الأشعري ،ص١٥٥، إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، الفخر الرازيّ ، ص٤٠.

(١٠) القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٧٨.

(١١) القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل(ج٦)، ص٤١. القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة ، ص ٣٤٠.

(١٢) بشر بن المعتمر، العلامة أبو سهل الكوفي ثم البغدادي شيخ معتزلة بغداد وصاحب التصانيف ، كان أخباريا شاعرا متكلما، وكان أبرص ذكيا فطنا لم يؤت الهدى وطال عمره فما ارعوى ، وكان يقع في أبي الهذيل العلاف وينسبه إلى النفاق ، أحدث القول بالتولد وانفرد عن أصحابه بمسائل ، مات سنة (٢١٠هـ /٨٢٦م) من تصانيفه : كتاب تأويل المتشابه ، وكتاب الرد على الجهال، وكتاب العدل، أُنظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء(ج١٠) ، الذهبي، ص٢٠٣ .

(١٣) معمَّر بن عباد السلَّمي بالتشديد معتزلي من أهل البصرة ، سكن بغداد وناظر النظام ، بغداد وبها مات مختفياً سنة (٢١٥هـ / ٨٣٠م)، أُنظر ترجمته في : لسان الميزان ، الذهبي ، ٧١/٦ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

منا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأنَّ نوحد الله تعالى ونؤمن برسله ويأمرنا بذلك ولا يريد المعاصي ولا يريد منَّا الكفر والفسوق والعصيان، ولا يأمر بها، أى أنَّ الله تعالى يشاء الشر ولا يريده ولا يأمر به بل هو من إرادة الإنسان وإختياره وفعله[١٤].

ونجدهم لا ينكرون علم الله الأزلي وأنَّ القدرة التي يقوم بها الإنسان بأعماله من الله ولكن اختلفوا في متى يمنح الله تعالى الإنسان هذه القدرة فهم يرون أنَّ الإنسان يعمل بقدرة حادثة، وأكثر المعتزلة يتبعون هذا الرأي.

ولاشك أنَّ إنتاج المعتزلة الفكري في العالم الإسلامي كان غريباً إلى حدٍ كبيرٍ عن روح القرآن والسنَّة، ومن ثم لم يلبث أمره طويلاً بين المسلمين، بينما استمر بعد ذلك المذهب الأشعري كمذهب لأهل السنَّة وإن لم يكن مطابقاً تماماً لعقيدة السلف.

ثالثاً: القائلون بالكسب (الأشاعرة) [١٥]:

يرى الأشاعرة أنَّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وليس للإنسان فيها غير اكتسابها وأنَّ الفاعل الحقيقي هو الله تعالى وما الإنسان إلا مكتسب للفعل الذى أحدثه الله على يد هذا الإنسان.

وقد جمع الإمام الفخر الرَّازِّي أقوال الأشاعرة في معنى الكسب فقال:" للكسب ثلاثة تفسيرات "أحدها" وهو قول الأشعري رضي الله عنه (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) أنَّ القدرة صفة متعلقة بالمقدور من غير تأثير القدرة في المقدور، بل القدرة والمقدور حصلا بخلق الله تعالى، كما أنَّ العلم والمعلوم حصلا بخلق الله تعالى، لكن الشيء الذي حصل بخلق الله تعالى وهو متعلق القدرة الحادثة هو الكسب. "وثانيها" أنَّ ذات الفعل توجد بقدرة الله تعالى، ثم يحصل لذلك الفعل وصف كونه طاعة أو معصية، وهذه الصفة حاصلة بالقدرة الحادثة، وهو قول أبي بكر الباقلاني(٤٠٣هـ/١٠١٢م) "وثالثها" أنَّ القدرة الحادثة والقدرة القديمة، إذا تعلقتا بمقدور واحد وقع المقدور بهما، وكأنَّه فعل العبد وقع بإعانة الله، فهذا هو الكسب، وهذا يعزى إلى أبي إسحاق الأسفراييني (٤١٨هـ/ ١٠٢١م) لأنَّه يروى عنه أنَّه قال الكسب والفعل الواقع بالمعين"[١٦]

ويستدل الأشعري على ذلك استدلالاً عقلياً فيقول: " إنَّهم وجدوا الكفر قبيحاً فاسداً باطلاً متناقضاً خلافاً لمن قالوا، ووجدوا الإيمان حسناً متعباً مؤلماً، ووجدوا الكافر يقصد ويجهد نفسه إلى أن يكون الكفر حسناً فيكون بخلاف قصده، ووجدوا الإيمان لو شاء المؤمن أن لا يكون مؤلماً متعباً ولا ممرضاً لم يكن ذلك على حسب مشيئته وإرادته، وقد علمناً أنَّ الفعل لا يحدث على حقيقته إلا من محدث أحدثه قاصداً لذلك لأنَّه لو جاز حدوث فعل على حقيقته لا من قاصد لم يؤمن أن تكون الأفعال كلها كذلك. كذلك حدوث الفعل لا من فاعل، فوجب من ذلك أن يكون الكفر محدثاً أحدثه كفراً باطلاً قبيحاً وهو قاصد إلى ذلك، ولا يجوز أن يكون المحدث له هو الكافر الذى يريد أن يكون الكفر حسناً صواباً فيكون على خلاف ذلك، كذلك لم يجز أن يكون محدث الإيمان على حقيقته المؤمن، فوجب أن يكون محدث ذلك هو ربَّ العالمين القاصد إلى ذلك، لأنَّه لا يجوز أن يكون أحدث ذلك جسم من الأجسام، لأنَّ الأجسام لا يجوز أن تفعل في غيرها "[١٧] .

مدلول قول الأشعري أنَّه لو كان الإنسان هو الفاعل حقا لأفعاله لأتت على نحو مايشتهي ويقصد، فلابد أن يكون ثمة فاعلاً حقيقياً لها غير الإنسان وهذا الفاعل ليس إلا الله تبارك وتعالى.

---

(١٤) البغدادي، عبد القاهر،الفرق بين الفرق ،ص ٩٣ - ص٩٥ . ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل(ج ٢)،ص٨٦. الشهرستاني، الملل والنحل(ج١)،ص٣٩. عبد الحميد،عرفات ، دراسات في الفرق والعقائد،ص ٢٦٨. عمارة، محمد، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص ٤٦. جار الله ،زهدي،المعتزلة،ص٩٢ .

(١٥) الأشاعرة،أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المنتسب إلى أبي موسى الأشعري ،ص٤١،قال ابن تيميَّة :هم اقرب من غيرهم على معتقد أهل السنَّة والجماعة، وقد انتشر الفكر الأشعري، ومن أهم العلماء الذين طوروا الفكر الأشعري: القاضي أبو بكر الباقلاني (٤٠٣هـ/١٠١٣م)،إمام الحرمين أبو المعالي الجويني(٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ/١١١١م)، إمام الفخر الرازيّ (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، من أهم آرائهم العقديَّة: اثبات صفات المعاني ، ونفي التعليل في أفعال الله مطلقاً، وقولهم بأن أحاديث الآحاد لاتثبت بها عقيدة، وتقديم العقل على النقل عند التعارض ، وتأويل الكثير من آيات الصفات، أنظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب الى الإمام أبي الحسن الأشعري، علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)،٢٧/١ وما بعدها، الملل والنحل، الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، دار الكتب العلميَّة، بيروت، صححه وعلق عليه : أحمد فهمي محمد ،٨١/١.

(١٦) الرازي،الفخر، تفسير الفخر الرازّي(م٢ ج ٤)، ص ٨٧ ـــ ٨٨ .

(١٧) الأشعرى، أبو الحسن ، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، ص ٣٨ – ٣٩.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ويستند مذهب الأشعرى من أفعال العباد إلى قضيَّة أساسيَّة يرى أنَّ المسلمين قد أجمعوا عليها وهي أنَّ ما شاء الله أن يكون كان وما لا يشاء لا يكون[١٨].

اهتم الأشاعرة بمسألة الكسب اهتماماً ظاهراً، فمسألة أفعال العباد من المسائل الرئيسة في مذهبهم، فهم يرون أنَّ أفعال العباد مخلوقة لله مقدورة له، وليس للإنسان فيها غير اكتسابها أي أنَّ الفاعل الحقيقي هو الله، وما الإنسان إلا مكتسب للفعل الذي أحدثه الله على يد هذا الإنسان[١٩].

والحق في نظرهم أنَّ أفعال العباد تتم بالمشاركة بين الله تعالى وعباده، فلا يستقل أي من الطرفين بها وحده ولما كان الله لا يحتاج إلى معين في أفعاله الخاصة فيبقى أنَّ العبد هو المحتاج إلى عون الله في أفعاله ومن ثم فإنَّ الفعل ينسب إلى فاعلين: الله والعبد[٢٠].

وعلى ذلك يكون الأشاعرة قد رفضوا قول الجبريَّة القائل: إنَّ الإنسان لا يستطيع إحداث شيء ولا كسب شيءٍ، وقول القدرية والمعتزلة القائل: إنَّ العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه بقوة أودعها الله إياه، فقالوا: إنَّ الإنسان لا يستطيع إحداث شيءٍ ولكن يستطيع الكسب.

فيقول الأشعري: " وأنَّه لا خالق إلا الله، وأنَّ أعمال العباد مخلوقة لله مقدرة، كما قال تعالى: M وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ L[٢١] وأنَّ العباد لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً وهم يُخلقون"[٢٢].

وفي معنى الكسب يقول الأشعري: " إن الشيء وقع من المكتسب له بقدرة حادثة "[٢٣]، وطبعاً هذا القول يختلف تماماً مع رأي المعتزلة في الكسب فهو عندهم كل فعل يُستجلب به نفع، أو يُستدفع به ضرر[٢٤].

إذن فأفعال العباد عند الأشاعرة مضافة إليهم بالإكتساب وإلى الله تعالى بالخلق والإختراع وأنَّه لا أثر للقدرة الحادثة فيها ابداً.

ويبدو أنَّ الأشاعرة أرادوا بإثبات الكسب محاولة التوسط بين الجبريَّة والقدريَّة بجعلهم للعبد قدرة حادثة غير مؤثرة في فعله، بخلاف ما ذهب إليه الجبريَّة والقدريَّة[٢٥].

ويفرِّق الأشعري بين نوعين من الأفعال هما: الأفعال الاضطراريَّة والأفعال الاختياريَّة الإراديَّة، وأنَّ كلاً من الحركة الإختياريَّة والإضطراريَّة موجودان من جهة الله خلقاً، لأنَّ حركة الإضطرار إذا كان الذي يدلُّ على خلقها هو حدوثها وكذلك حركة الاكتساب[٢٦].

وعلى كل فقد قدَّم أبو الحسن الأشعري للفكر الإسلامي محاولة ذكيَّة للتوفيق بين أن يحدث الفعل بقدرة الله تعالى وفاعليته خلقاً وإبداعاً، مع نسبة الفعل بوجْهٍ ما إلى الاستطاعة البشريَّة، وحتى يوجب ذلك على العبد المسئولية والجزاء، ولا يعتبر قوله في الكسب إبتداعاً بل هو اجتهادٌ في الأمر، حاول كل مفكر إسلامي أنَّ يجتهد في كشف غموضه قدر طاقته.

رابعاً: الذين توسَّطوا في المسألة (الماتريديَّة) :

تعتبر الماتريديَّة من الفرق القائلة بالكسب، فهم يقولون إنَّ أفعال العبد مخلوقةٌ لله تعالى وهي كسب من الإنسان، شأنهم في ذلك شأن جميع أهل السنَّة، يقول أبو منصور الماتريدي[٢٧]: " اختلف منتحلو الإسلام في أفعال الخلق، فمنهم من جعلها لهم مجازاً، وحقيقتها

---

(١٨) الأشعرى ، أبو الحسن ، الإبانة عن أُصول الديانة، ص ١٦٣.

(١٩) الأشعري، أبو الحسن ، مقالات الإسلاميين(ج٥٣٩).الباقلاني، أبو بكر، الإنصاف، ١٤٤ . الإيجي، عضد الدين، المواقف في علم الكلام(ج٣)،ص٢١٤. الجويني، عبد الملك، لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة،ص ١٢٠. الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين(ج١)،ص١١٠.

(٢٠) أبو ريان ، محمد ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ،ص٢٠٦ .

(٢١) سورة الصافات ، الآية (٩٦) .

(٢٢) الأشعري ، أبو الحسن ،الإبانة عن أصول الديانة،ص ٢٣ .

(٢٣) الأشعري، أبو الحسن، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ، ص٧٦ .

(٢٤) القاضي عبد الجبار ، شرح الأصول الخمسة ، ص ٢٦٤ .

(٢٥) ابن رشد،مناهج الأدلة في عقائد أهل الملة ، ص ٢٤٤ .

(٢٦) الأشعري ، أبو الحسن،اللمع في الرد على الزيغ والبدع ، ص٧٢

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لله بأوجه: **أحدها** وجوب إضافتها إلى الله مجازاً، لأنَّه الفاعل الحق والقادر الذي لا يعجزه شيءٌ، وفي ذلك إخراج عن قدرته وإزالة عن حقيقة فعله. وقد أُضيف كثير مما لا يشك على أنَّ الله منشؤه إلى العباد بالحرف الذي هو حرف العبادة عن الأفعال كالموت والحياة، والطول والقصر، والحركة والسكون، والإجتماع والتفرق، والله سبحانه لكل ذلك فاعلٌ، وعلى كله قادرٌ، فمثله ما ذكرنا...

و**الثاني**: أنَّ بتحقيق الفعل لغيره تشابهاً في الفعل، وقد نفى الله ذلك بقوله: Mأَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُL [٢٨] وعندنا لازم تحقيق الفعل لهم بالسمع والعقل والضرورة... وليس في الإضافة إلى الله سبحانه وتعالى نفي ذلك، بل هي لله بأن خلقها على ما هي عليه وأوجدها بعد أن لم تكن وللخلق على ما كسبوها وفعلوها، وأيضاً أنَّ كل أحدٍ يعلم من نفسه أنَّه مختارٌ لما يفعله وأنَّه فاعلٌ كاسبٌ"[٢٩].

فخالقُ أفعال العباد خيرها وشرها هو الله سبحانه وتعالى لا شريك له، وهي خاضعة لقضاء الله وقدره كسائر مخلوقاته وهذا لا نزاع فيه بين الماتريديَّة.

أمَّا بالنسبة لعلاقة العباد بأفعالهم فقد اتخذ الماتريديَّة موقفاً وسطاً بين المعتزلة والجبريَّة فلا جبراً تاماً ولا حريةً تامةً.

فقالوا أفعال العباد مخلوقةً لله وهي كسبٌ من العباد، وأنَّ المؤثِّر في أصل الفعل قدرة الله والمؤثر في صفة الفعل قدرة العبد وتأثير العبد هذا هو الكسب.

فقدرة العبد عند الماتريديَّة لها أثرٌ في الفعل ولكن لا أثر لها في الإيجاد لأنَّ الخلق يتفرَّد الله تعالى به وإنَّما أثرها القصد والإختيار للفعل.

يقول الماتريدي: " إنَّ حقيقة ذلك الفعل الذي هو للعباد من طريق الكسب ولله من طريق الخلق، دليل ذلك أنَّ فعل الله تعالى في التحقيق خلقه، وكل ذلك لو أُضيف إليه بإسم الخلق لم يفهم منه في ذلك غير إنشاء"[٣٠]، ويرى الماتريديَّة أنَّ قدرة العبد صالحة للضدين فكما أنَّها قدرةٌ على الطاعة فهي قدرةٌ على المعصية وكما هي قدرةٌ على الإيمان فهي قدرةٌ على الكفر.

فأصل الفعل بقدرة الله والإتصاف بكونه طاعة أو معصية بقدرة العبد وهو مذهب جمهور الماتريديَّة[٣١].

خامساً: رأي السلف :

تعتبر مدرسة السلف من أهم المداراس الإسلاميَّة القائلة بأنَّ الله خالق أفعال العباد وخالق كل شيءٍ، وهم في ذلك يخالفون القدريَّة والجبريَّة، يقول شارح العقيدة الطحاوية: " أفعال العباد هي خلق الله وكسبٌ من العباد، وقال أهل الحق أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهي مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه وتعالى منفردٌ بخلق المخلوقات، لا خالق لها سواه، فالجبرية غلوا في إثبات القدر، فنفوا صنع العبد أصلاً، كما غلت المشبَّهة في إثبات الصفات فشبَّهوا، والقدريَّة نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة من حيث أنَّ المجوس أثبتت خالقين وهم أثبتوا خالقين...

وهدى الله المؤمنين من أهل السنَّة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم"[٣٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية(٧٢هـ/١٣٢٧م): " مذهب أهل السنَّة والجماعة في هذا الباب ما دلَّ عليه الكتاب والسنَّة وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وهو أنَّ الله خالق كل شئٍ ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع

---

(٢٧) الماتريدي ، محمد بن محمد بن محمود أبو منصور ، من كبار العلماء ، تخرج بأبي نصر العياضي ، كان يقال له إمام الهدى ، توفي سنة (٣٣٣هـ/ ٩٤٥ م) وقبره بسمرقند ، من أهم كتبه : التوحيد ، المقالات، بيان أوهام المعتزلة ، تأويلات القرآن ، أُنظر ترجمته في الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، عبد القادر بن أبي الوفاء ، ١٣٠/٢ ، طبقات المفسرين للداودي ، ٦٩/١ .

(٢٨) سورة الرعد ، الآية (١٦) .

(٢٩) الماتريدي، أبو منصور، التوحيد ، تحقيق خليف ، فتح الله ، دار الجامعات المصرية ، الإسكندرية ، ص ٢٢٥ - ص٢٢٦.

(٣٠) نفس المرجع ، ص٢٢٨ .

(٣١) البياضي، إشارات المرام من عبارات الإمام ، ص٢٥٦.

(٣٢) الحنفي ،ابن أبي العز ،شرح العقيدة الطحاوية(ج٢)،ص٦٦٢ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنَّه سبحانه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن فلا يكون شيئٌ إلا بمشيئته وقدرته ولا يمتنع عليه شيءٍ شاءه بل هو القادر على كل شيءٍ ولا يشاء شيئاً إلاَّ وهو قادر عليه "[٣٣].

ويقول أيضاً:" وممَّا اتفق عليه سلف الأُمَّة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر، وأنَّ الله خالق كل شيءٍ، وأنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنَّ الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنَّ العباد لهم مشيئة وقدرة يفعلون بقدرتهم ومشيئتهم ما أقدرهم الله عليه، مع قولهم: إنَّ العباد لا يشاؤون إلا أنَّ يشاء الله كما قال تعالى:Mوَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ L[٣٤] وقال تعالى:Mإِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا L[٣٥]، وقال تعالى: M إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (27) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ L[٣٦]، وقد أخبر بأنَّ العباد يؤمنون، ويكفرون، ويفعلون، ويعملون، ويكسبون، ويطيعون، ويعصون، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويحجون، ويعتمرون، ويقتلون، ويزنون، ويسرقون، ويصدقون، ويكذبون، ويأكلون، ويشربون، ويقاتلون، ويحاربون، فلم يكن من السلف والأئمة من يقول: إنَّ العبد ليس بفاعل ولا مختار ولا مريد ولا قادر، ولا قال أحد منهم: أنَّه فاعل / مجازاً بل من تكلم منهم بلفظ الحقيقة والمجاز متفقون على أنَّ العبد فاعلٌ حقيقة ، والله تعالى خالق ذاته وصفاته وأفعاله.

ويقول اللالكائي[٣٧]: " إنَّ أفعال العباد كلها مخلوقة لله عزَّ وجلَّ طاعتها ومعاصيها"[٣٨] .

ويقول الصابوني[٣٩]:"

ومن قول أهل السنَّة والجماعة في أكساب العباد: أنَّها مخلوقة لله تعالى لا يمترون فيها ولا يعدّون من أهل الهدى ودين الحق من ينكر هذا القول وينفيه "[٤٠] .

أمَّا عن أثر قدرة العبد في أفعاله فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ/١٣٢٧م) : " التأثير اسم مشترك قد يراد به الإنفراد بالابتداع والتوحيد بالاختراع فإن أُريد بتأثير قدرة العبد هذه القدرة فحاشا لله لم يقله سنَّي، وإن أُريد بالتأثير نوع معاونة إمَّا في صفة من صفات الفعل أو في وجهٍ من وجوهه كما قال كثير من متكلمي أهل الإثبات فهو أيضاً باطل بما بطل به التأثير في ذات الفعل وإنَّ أُريد بالتأثير أنَّ خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة بمعنى أنَّ القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه وتعالى بهذه القدرة كما خلق النبات بالماء وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب فهذا حق، وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركاً وإلا فيكون إثبات جميع الأسباب شرك"[٤١]

وهذا هو مذهب أهل السنَّة والجماعة في أفعال العباد الإختيَارية وهو المذهب الوسط الذي دلَّ عليه الكتاب والسنَّة.

ومما تقدَّم يتبيَّن لنا أنَّ أهل السنَّة والجماعة جميعهم متَّفقون على أنَّ أفعال العباد مخلوقة لله ومكسوبة للعباد فالأشاعرة أثبتوا الكسب للعبد بقدرةٍ أودعها الله إيَّاه ولكنّهم لم يجعلوا لقدرة العبد أيَّ تأثير في فعله.

---

(٣٣) ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام(ج٨)،ص١٤٣.

(٣٤) سورة المدثر، الآية (٥٦) .

(٣٥) سورة الإنسان، الآية (٢٩ــ٣٠) .

(٣٦) سورة التكوير، الآية (٢٧ – ٢٩) .

(٣٧) اللالكائي، هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازّي الشافعي (أبو القاسم) فقيه محدث حافظ متكلم ، من أثاره : مذاهب أهل السنَّة، شرح أصول إعتقاد أهل السنَّة ، أُنظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء، الذهبي ، ٤١٦/٧ ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي العكري ٢١١/٣.

(٣٨) اللالكائي ، شرح أصول إعتقاد أهل السنَّة والجماعة(ج ٣)، ص٥٣٤.

(٣٩) الصابوني، إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم شيخ الإسلام أبو عثمان النسابوري فقيه ومحدث ومفسر وخطيب وواعظ، ولد سنة (٣٧٣هـ/ ٩٨٤ م) وتوفي سنة (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧ م) كان ممن رزق العز والجاه في الدين والدنيا ، عديم النظير، سيف السنة ودافع أهل البدعة، من مصنفاته : عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، أُنظر ترجمته في : طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ، ٢٧١/٤ ، معجم الأدباء، ياقوت الحموي ، ٢٩٧/٢ .

(٤٠) الصابوني :عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، ص ٢٧٩ .

(٤١) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام(ج٨)، ص٣٨٩ _ ص ٣٩٠.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والماتريديَّة أثبتوا الكسب للعبد بقدرةٍ أودعها الله إيَّاه وجعلوا لهذه القدرةِ أثراً في الفعل ولا أثر لها في الإيجاد ؛ لأنَّ الخلق يتفرد الله بهم وإنَّما أثرها القصد والإختيار للفعل.

أما السلف فقد أثبتوا الكسب للعبد أيضاً بقدرةٍ أودعها الله إيّاه وأنَّ للعبد مشيئةٌ واختيار، فهو مختار مريد والله خالقه وخالق اختياره، وعلى ذلك نرى اقتراب مذهب الماتريديَّة مع السلف وكذلك الأشاعرة بعد التطَّور الذي حدث للكسب عندهم بعد إمام الحرمين الجويني(٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) .

الخاتمة:

قضايا العقيدة بصفة عامَّة ذات أهميَّة شديدة بالنسبة للمسلمين، لأنها تؤثر تأثيراً بالغاً على مسار حياتهم ، وقد بيَّنت هذه الدراسة موضوعاً من موضوعات العقيدة ألا وهو مسألة خلق أفعال العباد وتطورها في الفكر الإسلامي فبينت رأي أهم الفرق الإسلامية حول هذه المسألة الهامة مثل الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية والسلف، وهذه الدراسات التي تبين آرآء عدة فرق كان لها كبير الأثر في تاريخ الفكر العقدي الإسلامي. وحتى يستطيع المسلم المعاصر إدراك هذا الاختلاف ثم يتبين المنهج الحق الذي يجب عليه أن يعتقده، وهو المذهب الذي يقوم على فهم قضايا العقيدة بناءً على فهم السلف الصالح أي ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام.

التوصيات:

١. وجوب الاهتمام بقضايا العقيدة والعمل على نشرها في أوساط المثقفين.

٢. الاهتمام بالدراسات المقارنة لآراء الفرق الإسلامية حيث من خلالها يتوصل المسلم المعاصر إلى المنهج الحق في إثبات العقائد.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

١. علي بن أبي العز الحنفي (٢٠٠١م) شرح العقيدة الطحاوية . تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الآرنؤوط، ط٢ ، مؤسسة الرسالة: بيروت – لبنان.

٢. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل تحقيق محمد، أحمد فهمي، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان.

٣. الأشعري أبو الحسن (١٩٩٠م) مقالات الإسلاميين تحقيق عبد الحميد، محمد محي الدين، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.

٤. الرازِّي، محمد بن عمر فخر الدين (١٤١٤هـ/١٩٩٣م) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، لبنان، بيروت.

٥. الفيومي، محمد إبراهيم، تاريخ الفرق الإسلامية السياسي والديني (شيخ أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدي). دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان.

٦. ابن حزم الظاهري (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) الفصل في الملل والأهواء والنحل تحقيق إبراهيم، محمد و عميرة، عبد الرحمن، دارالجيل، لبنان، بيروت.

٧. الإسفراييني، طاهر بن محمد أبو المظفر (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين تحقيق الحوت، كمال يوسف ، ط ١ ، عالم الكتب ، لبنان.

٨. القاضي عبد الجبار بن أحمد (١٩٨٨/١٤٠٨) شرح الأصول الخمسة تحقيق عثمان ،عبد الكريم (ط٢)، مكتبة وهبة، القاهرة .

٩. القاضي عبد الجباربن أحمد (١٩٨٣/١٣٩٤) المغني في أبواب التوحيد والعدل. تحقيق الطويل، توفيق و زايد ،سعيد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة، القاهرة .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١٠. البغدادي (١٤١٨هـ/١٩٨٥م). محمد ،عبد القاهر بن طاه ،الفرق بين الفرق. تحقيق حيدر، عماد الدين أحمد (ط١) ، دار الأفاق الجديدة، لبنان، بيروت.
١١. محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية.
١٢. زهدي جار الله (١٣٩٤/ ١٩٨٣م). المعتزلة الأهلية للنشر والتوزيع (ط٤) ، بيروت،لبنان.
١٣. الأشعرى ، أبو الحسن ، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان .
١٤. الأشعرى، أبو الحسن (١٣٩٧هـ/١٩٧١م)الإبانة عن أُصول الديانة تحقيق حسين، فوقية (ط١)، دار الانصار، القاهرة.
١٥. الايجي،عضد الدين، المواقف في علم الكلام،ج٣.
١٦. الجويني، عبد الملك بن عبد الله (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة. تحقيق حسين، فوقية عالم الكتب، لبنان- بيروت.
١٧. أبو ريان، محمد (١٣٩٤هـ/م١٩٧٤) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام (ط٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
١٨. ابو الوليد،ابن رشد (١٣٨٤هـ/١٩٩٤م) مناهج الأدلة في عقائد أهل الملة. تحقيق قاسم، محمود (ط١)،المكتبة الانجلو مصرية.
١٩. الماتريدي، أبو منصور، التوحيد. تحقيق، خليف، فتح الله، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية.
٢٠. ابن تيمية، شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم(١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) مجموعة فتاوى، تحقيق الجزار، عامر و الباز،أنوار (ط٢) ،دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة- مصر.
٢١. اللالكائي، ابو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور(١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) شرح أصول اعتقاد أهل السنَّة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابيعين. تحقيق، حمدان، أحمد حسن، دار طيبة- الرياض.
٢٢. الصابوني، إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم،عقيدة السلف وأصحاب الحديث.دار الجيل ، لبنان، بيروت.
٢٣. الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب(١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) الإنصاف، تحقيق الكوثري، محمد زاهد (ط٢)، مؤسسة الخانجي، القاهرة .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com